

سِمَات وَمَشَابَه عَرَبِيَّة فِي أَدَبِ الْكَاتِبِ الْإِيطَالِيِّ

جوفاني فيرغا Giovanni Verga

لِلدُّعَاءِ وَفِي سِيَاقِ النَّاصِيحَةِ

لِلدُّعَاءِ

الاقتصادية المادية من اثر واسع في الحياة العادية في اوربوا ، حتى جعلت كل شيء يفسر تفسيراً مادياً واقتصادياً وآلياً .

كان جوفاني فيرغا روائي الواقعية وخلاقها المبدع ، بينما كان صديقه وزميله كابوانا ناقدتها الاكبر ، وناشر فلسفتها بما يمتاز به تقدمه من حيوية الافكار والانطباعات ، الى جانب مشاركته في الخلق والابداع بما ألفه من اقصيص وروايات ومسرحيات منتزعة كلها - او أغلبها - من واقع الحياة الصقلية . ولعل أشهر أعماله الادبية قصته مركز روكافيردينا - (Marchese di Roccaverdina) . وبالرغم من براعة كابوانا النقدية ، واهمية آثاره الادبية ، فان فيرغا يظل اهم منه كثيراً في زعامة المدرسة الواقعية ، وابتعد اثراً .

وكان يمكن اعتبار اليساندرو مانتروني خالقاً للمدرسة الواقعية قبل كابوانا وفيرغا ، على الاخص بروايته الشهيرة (الخطيبان - I promessi sposi) لولا أن ما نتزوني كان حريصاً على الجوانب الخلقية ، فيحكم على الاعمال والاشخاص في روايته على أسس خلقية ، لا مادية واقتصادية وعلمية ، بينما تترك المدرسة الواقعية الحكم على الاعمال والاشخاص الى القاريء نفسه ، لا الى المؤلف ، كما ان هذه المدرسة كانت تحرص على عدم الكشف عن الدنئيات والمساويء الانسانية علناً او التشهير بها أمام القراء ، بل كانت تعطف على المحرومين من أبناء الشعب ، وتشيد

اذا كانت المدرسة الادبية الواقعية تعزى في فرنسا الى هونوريه دي بلزاك واميل زولا ، ويضمون اليها غي دي موباسان وغوستاف فلوبر ، فانها في إيطاليا تعزى الى لويجي كابوانا وجوفاني فيرغا ، ويضمون اليها غراتسيا ديليدا .

واذا كان بلزاك ، في فرنسا ، يعتبر نقطة البداية في الحركة الواقعية ، واميل زولا عامل تثبيتها واديبها الاكبر ، فان الايطاليين يعتبرون كابوانا نقطة البداية في المدرسة الواقعية ، او الطبيعية (Verismo - Naturalismo) وفيرغا عامل تثبيتها واديبها الاكبر ، على الاخص بروايته الشهيرتين (أسرة مالا فوليا - I Malavoglia) و (المعلم السيد جيزوالدو - Mastro Don Gesualdo)

وعلى الرغم من أن المدرسة الواقعية الإيطالية جاءت بعد اختها الفرنسية ، وكانت متأثرة بها ، إلا أنها تختلف عنها في ناحية مهمة هي أنها انصرفت الى معالجة الواقع المحلي الصرف : الواقع الإيطالي لا الانساني العام ، كما نرى ذلك في اشخاص روايات فيرغا التي كانت صقلية مائة بالمائة ، واشخاص روايات غراتسيا ديليدا التي كانت من واقع جزيرة سردينيا وحدها ، ومن بيناتها الفقيرة الخاملة المتألمة .

لقد تأثرت هذه المدرسة - سواء في فرنسا أم في إيطاليا - بالنهضة الصناعية والعلمية في اوربوا ، ويظهر كارل ماركس وانجلز ، وما تركت فلسفتها

وكان لذلك طبيعيا ان يموت بعضهم بالسل والاسقام،
وينتحر بعضهم كذلك : فقد قضى (تاركيتي)
بالسل وعمره ثمانية وعشرون عاما ، وقضى
(كامبرانا) منتحرا ، ومات اشهرهم (براغا) صغير
السن لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره .

عند ظهور هذه المدرسة المسلولية - أو فلنقل
« المسطولة » ! - كان فيرغا في حدود الثلاثين من
عمره، وفي عز انتشارها كان قد وصل الى فلورنسا،
ثم انتقل قبل وفاتها الى ميلانو - مهد هذه الحركة
وقبرها - وفي هذه الفترة جاءت أعماله الادبية
مزيجا مضطربا من اثر الواقعية الفرنسية ، والتمردية
الفوضوية الميلانية - مدرسة ذوي الشعور
الشعث - . وهذه الاعمال التي انتجها فيرغا هي :
(خاطئة - Una Peccatrice) و (حكاية بلبل -
Storia di una capinera) والنمر الملكي -
(Tigre Reale) و (ايسروس Eros)
(و حواء Eva) .

وعلى الرغم من ان فيرغا قد وضع هذه
الروايات بعيدا عن الارض الصقلية ، وفي وسط
المدن الشمالية الكبيرة الملاى بالنشاط والحياة ، الا
انه كان يعيش بروحه في ارضه الصقلية ، ومنها ظل
يستمد الهامه وشخصه وصوره . وعلى الرغم من
النجاح الذي لقيه هذه الروايات ، فانها لم تبليغ
السمت الغني الذي كان فيرغا يتوق الى تحقيقه .
ولم يهتد الى حقيقته الفنية الا حين سلك سبيل
الواقعية الادبية ، فهناك رسخت شهرة فيرغا بين
عمالقة الادب الايطالي ، ولاسيما حين ظهرت رواياته
الشهيرتان (I Malavoglia) (Mastro Don Gesualdo)
المستمدتان من واقع الحياة الصقلية الكادحة ،
المذعنة للقدر الرهيب ، وحين أصبح شخصه ممن
يدعوهم باسم المغلوبين - Vinti) لان الاقدار هي
التي تسيروهم بارادتها دون ان يكون لهم فيها رأي ،
ولا في تبديلها يد .

ولا في تبديلها يد بدأت الفترة الجديدة في حياة فيرغا
الادبية بقصة عنوانها Nedda ظهرت عام 1874 ، ثم
تلاها بعدد من المجموعات القصصية الواقعية الاخرى
في كتبه التالية: (حياة الحقول - Vita dei campi)
1880 ، و (خبز اسود - Pane nero) 1882 ،
و (افاصيص قروية - Novelle rustiche)
1883 و (في الطرقات - Per le vie) وغيرها .
الا ان فيرغا بلغ الذروة في روايته (اسرة -

بمزايهايم الإيجابية ، واستسلامهم الى الالم والبؤس،
ودفاعهم عن الشرف ، وما الى ذلك . وهذه المزاي
كلها نجدها مصورة ادوع تصوير في آثار فيرغا
الادبية المستمدة من الحياة الصقلية الشعبية
الكادحة ، المستلزمة الى المصير المحتوم .

نمن هو جوفاني فيرغا هذا ؟

ولد فيرغا في مدينة كاتانيا ، في صقلية ، عام
1840 ، وتوفي في عام 1922 ، بينما ولد زميله
كابوانا - وهو ايضا من كاتانيا - قبله بعام واحد ،
اي عام 1839 ، وتوفي قبله بسبعة اعوام ، اي عام
1915 .

ولقد احس فيرغا منذ حداثة بميل شديد الى
الاداب ، وبحاجته الى بيئة تساعد على تغذية ميله
هذا . وفي عام 1865 غادر صقلية الى فلورنسا
حيث وجد البيئة التي يريد . فاقام فيها مدة ،
ثم انتقل منها الى ميلانو ، وهناك بدأت حياته
الادبية بدايتها الجدية . فاقام في ميلانو الى ان عاد
منها عودته النهائية الى مسقط رأسه - كاتانيا -
حيث توفي عام 1922 .

في الفترة التي بدأ فيها فيرغا حياته الادبية
كانت الحركة الادبية الواقعية واسعة الانتشار في
فرنسا واوروبا ، وكانت قد ظهرت كذلك حركة
ادبية جديدة في مدينة ميلانو نفسها ، اطلق على
اصحابها اسم (ذوي الشعور الشعث) وبالايطالية
(Scapigliati) - وهي اشبه بحركة الخفافس،
او الهيبين في يومنا هذا - فهي مدرسة تمردية ،
قليلة الانصار ، قصيرة العمر جدا : اذ لم يزد عدد
كتابها وشعرائها البارزين على الستة ، وهم :
(Giuseppe Rovani) مؤسس هذه الحركة
وزعيمها ، و (Iginio Tarchetti) و
(Giovanni Camerana) و (Carlo Dossi) و
(Emilio Praga) وهذا اشهرهم ، واخيرا
(Arrigo Boito) . اما عمر هذه الحركة فلم
يزد على عشر سنوات (من 1860 الى 1870) .

لقد اراد هؤلاء الروائيون والشعراء الشبان ان
يتمردوا على مثالية المدرسة الرومنسية وحساسيتها
المفرطة ، ولكنهم انغمسوا كل الانغماس في حياة
فوضوية بوهيمية ، وفي الكفر بالله والانسان
والوطن والفن ، وبكل المثل العليا في الحياة ،
ومضوا ينشدون النسيان في تعاطي الخمر والافيون .

هذه الفقرة اخترتها من كتاب (تاريخ النقد الفيرغوي - (Storia della critica Verghiana) لصديقي الكاتب الإيطالي (Giorgio Santangelo) الأستاذ في كلية الآداب في جامعة باليرمو . وكنت قد قرأت هذا الكتاب النفيس قبل أن أشرع في دراسة آثار فيرغا ، لكي يساعدني على فهم هذه الآثار الأدبية فهما صحيحا . والحقيقة أنه أفادني كثيرا بأن أطلعني على آراء العديد من النقاد الإيطاليين في فيرغا وأدبه ، حتى لقد خيل الي أنه لم يبق جانب من جوانب فيرغا الفنية إلا أشبع درسا وتحليلا .

وحين عكفت على دراسة روايتي فيرغا الكبيرين (أسرة مالا فوليا - والمعلم السيد جيزوالدو) وجدت أن هناك نقطتين جديرتين بالنقاش والتحليل رغم كل ما قاله النقاد في أعمال فيرغا الأدبية . وأنا في هذه العجالة أقصر على هاتين الروايتين وحدهما من بين إنتاج فيرغا كله .

النقطة الأولى تتعلق بالحمية القدرية (Fatalismo) التي يراها النقاد في آثاره ، والتي أراها أنا بطولية ورجولة ، لا خنوعا لقدر محتوم لا يمكن قهره .

ويبدو لي أن هذه الحمية التي يراها نقاد فيرغا قد أصبحت لديهم ماركة مسجلة بالنسبة إلى أعماله الأدبية ، ولا سيما الواقعية منها ، فهو عندهم لا يعرف إلا بها .

وحين تذكر هذه الحمية ينصرف ذهننا إلى قطمان بشرية مذعنة لمسيرها المحتوم : تسير بعيون مغمضة ، ورؤوس منحنية خنوعا ، ولا تدري - أو لعلها لا تمك أن تدري ، أو تسال - أن كانت تساق إلى المسلخ أم إلى المرعى ، لأن أرادتها مشلولة ، ومسيرها مخطوط منذ الأزل في لوح القدر من نقطة انطلاقها حتى النهاية .

ولكن هل كان كذلك حقا إبطال فيرغا ؟ (أكرر هنا أنني أتحدث عن «أسرة مالا فوليا ، وجيزوالدو» بنوع خاص لثلا أزيد الموضوع اتساعا ، وأطلق الجناحين أكثر مما يجب) .

فلنحاول أن نأقي نظرة سريعة على كل من هاتين الروايتين لكي نصل من ذلك إلى حيث نضع أصابعنا في موضع الجراح من أولئك (الإبطال) الذين يأبى فيرغا إلا أن يدعوههم باسم (المفلويين ، أو المهزومين - (Vinti) :

مالا فوليا - والمعلم السيد جيزوالدو) ، وقد ظهرت الأولى عام 1881 ، والثانية 1889 . ويمكن أن تضاف إليهما روايتان أخريان ، هما : (زوج إلينا - (Il marito di Elena عام 1882 ، و (من حصتك على حصتي - (Dal tuo al mio عام 1906 .

في هذه الروايات انصرف فيرغا قبل كل شيء إلى النظر إلى الإنسان في عفوية أحاسيسه وأعماله ، وإلى الدنيا في الاعيب الاقدار العجيبة وتحكمها بمصائر البشر . فهو شديد العطف على الضعفاء ، والمعتهين ، والمفلويين على أمرهم الذين يحنون رؤوسهم لمشيئة القدر المستبد ، يفهمهم بعطف عميق حتى في أخطائهم .

وقد اهتدى فيرغا إذن إلى نفسه ، إذ عاد بروحه وقلمه من دنيا القصور الباذخة والحياة المترفة في المدينة الصاخبة ليستروح عبر أرضه انصقالية ، ويعيش مع شعبه ، ويتذوق طعم الخبز البيتي اللذيذ . لقد أفلحت الواقعية في أن تجعله يعيش بسلام مع نفسه ، ويستمد منه مما كان يعيش في أعماق نفسه من بيئته الصقالية الأولى .

صحيح أن معاصري فيرغا كانوا قد استقبلوا رواياته وأعماله الأدبية بشيء من البرود وقللة الاهتمام ، غير أنه ما كادت تميل شمس الواقعية إلى الغروب ، وتصبح شيئا من حصنة التاريخ الأدبي ، حتى أصبحت تلك الروايات والإقاصيص مشار الإعجاب الواسع لدى القراء والنقاد ، وأخذت مكانتها الرفيعة بين روائع الآثار الأدبية الكلاسيكية .

— * —

« أن فيرغا اليوم واحد من أوسع الكتاب شهرة وذيوغا في الأدب الإيطالي .. وعلى الرغم من تغير الظروف التاريخية لا يزال أكثر ما يكون حياة في ضمير الأجيال الجديدة التي تعتبره الكاتب الذي مجد أعظم الأخلاق الإنسانية نقاء ، والمجد الأكبر لقداسة الحياة ، ولنضال الرجولة اليومي للبقاء .. وأغانيه تظل ضمن نطاق الإنسانية ، إلا أنها تسمو على إنسانيتها بتحمل الألم برجولة حققة . هذه هي رسالة فيرغا الاجتماعية : فالاب نتوني هو رمز للعظمة الإنسانية السامية التي تعرف كيف تؤلف بين شريعة الحياة المتألمة وشريعة الله » .

1 - أسيرة مالا فوليا : MALAVOGLIA I

في هذه الرواية لدينا عدة أبطال ، غير ان الرئيسيين منهم ثلاثة ، هم : السيد نتوني - والدار ، وتدعى باسم « دار الزعرورة » Casa del nespolo والمركب ، ويدعى باسم « العناية » (Provvidenza) . وتتألف أسيرة مالا فوليا من : الشيخ نتوني ، والابن باستياناسو . والكنت ماروتسا (Maruzza) وتدعى أيضا (La Longa) ، وكذلك من الاحفاد (نتوني - لوكا - مينا Mena - اليسندر - ويسندر) ، ويصغرا ، اليسي - ثم ليا) . انها أسيرة من صيادي الاسماك يحاول افرادها ان يتعاونوا فيما بينهم على العيش من مهنة واحدة . وفي احدى السنين العجاف يحاول السيد نتوني ان يتغلب على الفقر والجوع بتجارة اترمس (Lupini) ولأجل ذلك يستدين من أحد المربين (واسمه كروتشيفيسو) خمسمائة ليرة . غير ان عاصفة تهب على المركب فتغرقه مع حملة من الترمس ، ويفرق معها كذلك الابن باستياناسو . اما المركب فينتشل ويعاد اصلاحه للعمل من جديد ، واما الدين فيظل دون تسديد رغم كل المحاولات والجهود التي يبذلها الشيخ نتوني وسائر الاسيرة . واخيرا تضطر الاسيرة الى التخلي عن الدار العزيزة - دار الزعرورة - ثم عن المركب - العناية - لتسديد الدين . وحين تتجرد الاسيرة من الدار والمركب تأخذ المصائب في التوارد عليها : فتتو الكنت بالكليريا ، ويقضي الحفيد لوكا في معركة بحرية ، والحفيد الآخر نتوني ، بعد ان يخدم في الجندية ، يعود الى البطالة ، وينغمس في اعمال التهريب ، وبالتالي يدخل السجن ليقتضي فيه خمس سنوات في القيود لطعنه ضابط الحرس في اثناء معركة ليلية بين حرس الجمارك والمهربين . وبعد ذلك تغادر الحفيدة ليا المنزل ولا يعود احد يراها . ويموت كذلك الشيخ في أحد المستشفيات بعد ان اثقلته السنون والمصائب معا . والحفيدة (مينا) لا تجد زوجا بسبب المصائب المتلاحقة التي تنصب على بيت مالا فوليا ، فتتصرف الى العناية بأخيها الاصغر (اليسي) وأسرتهم . واليسي هذا هو وحده الذي يتزوج جارة له تدعى (نونتيانا - Nunziata) ويتمكن من استعادة الدار التي كان استردادها آخر أمنية للجد قبل احتضاره . وبعدئذ يخرج الحفيد نتوني من السجن ويمضي بعيدا الى حيث لا يستطيع أحد ان يعرفه .

2 - المعلم السيد جيزوالدو -

MASTRO DON GESUALDO

كان جيزوالدو بناء ، وابن قروي يملك فرنا للجير (مشيدة) . ناضل نضالا عنيدا منذ طفولته ضد يؤس الفقراء وفاقتهم : « حمل الكثير من الحجارة على منكبيه .. وقضى العديد من الايام دون خبز » (ص 76) . لقد عمل اجيرا ، وبناء ، وعديدا من الحرف الاخرى ، ولكنه كان دائما مصمما على الانتصار على ظروفه الاليمة ، والتغلب على عناد الاقدار . وبفضل عمله المتواصل دون ملل او تعب استطاع ان يتغلب على الظروف الميسرة ، وان يقتن بفتاة تدعى (بيانكا تراو - Bianca Trau) كانت الاخيرة من اسيرة نبيلة خفض الزمان جناحها . غير ان هذا الزواج ، الذي فرضته على الطرفين المصالح المادية وليس الحب المتبادل ، يصبح بداية لمصائب خطيرة ، ثم يقضي الى الدمار . والثمرة الوحيدة لهذا الزواج ، وهي الابنة ايزابيلا ، تعيش بعيدة عن ابيها الذي تخجل من اصله الوضيع ، ثم تصبح زوجة لأحد دوقات باليرمو . وتموت الزوجة (بيانكا) بالكليريا ، ويصاب جيزوالدو نفسه بالسرطان ، فيقضي ايامه الاخيرة في قصر زوج ابنته في باليرمو ، ويموت بعد ذلك وحيدا يائسا بعد ان يرى ضياع الثروة التي جمعها بكده وعرقه المتواصلين جميعا ، والتي كانت اعز عليه من حياته . وتقول الرواية انه « هناك ، امام الثروة التي يملكها ، اقتنع بأنه انتهى حقا ، وان كل أمل له قد ضاع .. انه يود لو يستطيع ان يدمر بضربة واحدة كل الثروة التي جمعها شيئا فشيئا . يود لو أمكن ان تذهب املاكه معه ، قانطة يائسة مثله ! » (ص 347)

في البداية تستولي أخت جيزوالدو وزوجها على املاكه وثروته ، غير ان زوج ابنته لا يلبث ان يستولي على كل شيء رغم احتجاج الشيخ جيزوالدو المحتضر الذي « كان بطنه منتفخا كالقربة ... والانياب الكلبية في داخله تنهش كبده نهشا » (338)

— * —

في هاتين الروايتين نلاحظ كيف جعل فيرغا الحتمية القدرية تسيطر من البداية الى النهاية ، او هكذا أرادها ، لان فيرغا يرى « ان الناس - اختيارا كانوا ام اشرارا - يجثم عليهم كابوس محتوم صارم - كما يقول باسكواله لامانا في الجزء الثالث

من كتابه (تاريخ الادب الايطالي) ص 112 - يجتث كل طموح لهم نحو الرخاء ونحو الطمانينة ، ويعاقب بقسوة ظالمة كل ارادة لهم للخروج من قسرتهم ، والارتقاء فوق ظروفهم الاجتماعية .

ومع ذلك فان هناك ، الى جانب الاقدار والكابوس الصارم ، شيئا آخر هو « البطوثة » ، هو الصمود حتى النهاية فى النضال الذى يرافق سائر احداث اسرة مالا فوليا والمعلم جيزوالدو . ان البطولين التاعسين لا يرضخان للمصائب ، ولا ينحنيان امام المصائب والعوائق الرهيبة التى يضعها القدر فى طريقهما ، بل يسيران رافعي الرأس دون ان يعرفا اليأس والهزيمة .

ان الحتمية القدرية ليست حقيقة مطلقة فى الحياة ، بمعنى ان الانسان يجب ان يحني رأسه مستلما لها دون نضال . وكذلك هي فى روايتي فيرغا : فى حياة اشخاصه وتصرفاتهم ومعتقداتهم . انها ليست حقيقة مطلقة لا يمكن التغلب عليها بقوة الارادة ورجولة النضال ، بمقدار ما هي عقيدة ميطرة على تفكير المؤلف نفسه . ان فيرغا يلج كل الاحاح فى ابرازها فى رواياته . وعلى الرغم من انها ليست حقيقة لا علاج لها ، الا ان المؤلف يبحث عنها عامدا ، ويريدها دون علاج لابطاله الذين يدعوهم (المفلولين) لكي يحدد لهم قسمتهم تحديدا قسريا منذ الازل : اي ان « يعملوا ويتألموا » - كما يقول الناقد الايطالي ساينيو (Sapegno)

ان اشخاص فيرغا ليسوا من اختراع خياله . هذا صحيح ، ولكنهم مخلوقات آدمية ينتقياها هو من الواقع البائس انتقاء بلحمها ودمها ، ويعرضها على المسرح لكي تمثل ادوارها الحقيقية التى يلازمها اليأس والتحس . غير أننا فى هذا الواقع الذى يعرضه لنا المؤلف نلمس لدى فيرغا ميلا طبيعيا - أو هل نقول « حتميا » ، حسب اعتقاده بالحتمية ؟ - الى المأساة اكثر منه الى الملهة ، او الى بساطة الحياة وعاديتها . وقد يكون ذلك لان حياة جزيرة صقلية كانت حينئذ - كما صورها فيرغا ، وكما صورها من بعده جوزيبي توماسي دي لامبيدوزا فى روايته (الفهد) او (Il Gattopardo) كما هو عنوانها بالاطالية ، بكثير من الاغراق فى التشاؤم - منفى مليئا بالتعاسة والجهل والفقر والظلم .

يقول ماتزوني (Mazzoni) : « ان المؤلف يعطينا اشخاصه كما يريدهم هو ، ويجعلهم يتصرفون

كما نحب نحن ، حتى فى اكثر حركات حياتهم سرية . انه يسمع اشد اصواتهم خفاء ، ويتجسس حتى على تنهداتهم فى ليالي الارق » . . . وأنا احب ان اضيف هاهنا ان فيرغا يستحضر اشخاصه ومعهم بيئاتهم الحقيقية . وعلى الرغم من انه كان يصور دائما على ان فنه لا صلة له بشخصه ، وينفي الذاتية عنه ، فان ما يضعه من كلام على افواه اشخاصه ينسجم كل الانسجام مع البيئة النفسية والروحية التى يحسها هو نفسه ويريد ابرازها ، اي مع عالمه الخاص . وطبيعي انه يقدم لنا الحقائق فى لمسات من يدفنان بارع ، لا وقائع تاريخية مجردة من حياة الجزيرة فحسب . والمساكين الذين يناضلون لاجل الرغبةى ولجل السلام فى جزيرتهم هم وحدهم الاشخاص الذين يعتمد فيرغا اختيارهم ليفصل على قياسهم فكرته الخاصة فى القدرية وفى المصير المحتوم وجبروته . غير أننا نراهم ، رغم الهزائم المريرة ، على استعداد دائم لمتابعة النضال بكل جدارة ، ومن غير هدنة . صحيح انهم قد ينتهون الى الخيبة والقنوط ، ولكنهم يسقطون سقوط الابطال ، لا سقوط الضعفاء والجبناء ، وفى بعض الاحيان قد يبلغ نضالهم - ولو متأخرا جدا - الى النصر ، والى استرداد المتاع الذى فقدوه ، كما راينا فى (اسرة مالا فوليا) وفى بعض جوانب فى (المعلم السيد جيزوالدو) ايضا ، كما سأشرح ذلك فى ما يلي :

فى (اسرة مالا فوليا) يناضل الشيخ نتوني طويلا ، وتناضل معه أسرته كلها كذلك ، لكي يتوصلوا الى استرداد (دار الزعرورة) . غير ان السيد نتوني نفسه لا ينتصر ، لسوء حظه ، الا بعد موته : ففى اللحظة الاخيرة يبشره حفيده اليسى بانه استطاع ان يسترد الدار . كان السيد نتوني حينئذ على عتبة العالم الآخر الذى لا عودة منه ، غير انه احس بأن الحياة لم تخدعه خداعا تاما ، وبأن العدالة ما تزال توجد على الارض .

واليكم ما تقوله الرواية :

« حين اخبروه بعد ذلك انهم استعادوا دار الزعرورة ، وارادوا ان يعيدوه معهم الى (تريسا - Trezza) من جديد - كان حينئذ فى المستشفى طبعاً - اجاب بنعم ، ثم نعم ، بعينيه اللتين عادت الى الاشراق ، وكاد فمه ينفرج عن ضحكة عريضة : ضحكة أولئك الذين ما عادوا يعرفون الضحك ، او الذين يضحكون للمرة الاخيرة . ولكن الضحكة ظلت

ساعة واحدة مثل تلك الساعات التي كان يستمتع بها أخوه (سانتو) على حبابه في الحانة « (ص 78) .

وعلى الرغم من كل هذا اليأس والعناء فان دون جيزوالدو لم يكن قط رجلا متخاذلا : لم يستسلم الى مشيئة القدر ، بل كان يريد ، بأي ثمن ، أن يخرج من قشرفته ويرتقي فوق ظروفه الاجتماعية « الاصاية » . وقد رأينا في ما تقدم كيف استطاع بفضل عمله الدائب وتصميمه الحازم أن يصل الى مكانة اجتماعية مرموقة يحترمها الآخرون ، وأن يصبح موهوبا حتى لدى الشخصيات البارزة الضخمة في بلده ، وأن يقترب بفتاة من أسرة أرستقراطية . حتى ابنته الوحيدة اقترنت بأحد دوقات باليرمو .

صحيح انه في النهاية كان لابد ان يقضي بالسرطان ، الا انه مات بطلا لا خاملا وضيعا . وعدا ذلك - وهذا مهم جدا - مات جيزوالدو واثقا من ان ابنته - ثمة زواجه الوحيدة - لن تعرف اليأس والحرمان ، بل ستتمتع بثمرة تضحيتها وكفاحه .

ومن هم الذين كافحهم المعلم جيزوالدو ؟

لقد كافح الجميع ، وكافح كل شيء : كافح اليأس ، وضعة الاصل ، وقسوة الحياة ، وكبار الشخصيات في البلد ، وتحكم والده المتعنت ، وحسد أخيه وجشعه ، وكافح كذلك حسد شقيقته وزوجها ، بل لقد كافح حتى (تاني - Tanni) الانتهازي ، وهو ليس سوى زوج لخادمتة (ديوداتا - Diodata) . . وكذلك كافح حقد الاخوين (تراو) شقيقي زوجته ، كما كافح غرور صهره التدوق ، ومساوي الكاهن (دون لوبي) وخيشه . وكافح الملايا ، وقوى الطبيعة التي تماكسه في صف خصومه الناقمين الحاسدين . وفي كل مرة كان جيزوالدو يخرج من هذا الكفاح منتصرا ، حتى اللحظة الاخيرة التي ادار فيها وجهه نحو الحائط - كما فعل والده من قبله - « وبردت اطرافه فجأة ، ثم سكت حركته نهائيا » - كما يقول المؤلف (ص 367)

لقد مات السيد جيزوالدو والسيد نتوني مالا فوليا قانطين ، هذا صحيح ، ولكنهما ماتا بكرامة وانفة . كانا من الابطال الحقيقيين الذين يظلون متنبكين سلاحهم حتى النفس الاخير في كفاحهم ضد حتمية الاقدار . وهذه البطولة في الصراع

مفروسة في قلبه كالنصل . ذلك ما جرى لاسرة مالا فوليا حينما عادوا يوم الاثنين في عربة (العم الفيو) ليعيدوا جدهم معهم الى المنزل فلم يجدوه « (ص 245)

اذن فقد انتصر السيد نتوني على حياة الفقراء المريرة بنضاله الذي لم يكن لنفسه فحسب ، ولا اينال النصر وحده : بل لتظل ثمره عنايته لاحفاده من بعده . ان النصر يظل دائما نصرا ، ولا يقلل من أهميته موت المحاربين الشجعان : فالنصر الحقيقي لا يجيء من دون تضحية . في جميع الحروب هناك من يحارب ويسقط لاجل الآخرين ، وآخرون يفوزون بمكاسب تلك التضحية . فالمحارب انما يحارب لكي ينتصر وهو يعلم حق العلم بأن الموت ينتظره في الحرب ، غير ان تضحيته لا تذهب عبثا الا اذا لم يستفد احد منها من بعده . والتضحية هنا ، ونضال السيد نتوني الطويل الشاق ، استفاد منهما آخر احفاده (اليسى) .

حتى المركب (العناية) انتصر على هياج الامواج والعواصف : كان حينما يمتليء بالماء حتى ليخشى عليه من الفرق ، وحينما يخرج من مصارعة العواصف محطما . غير انه في كل مرة كان يعاد اصلاحه ، فيعود سليما ومستعدا لصراع جديد مع عاصفة اخرى ، واخيرا تخلص عنه اصحابه الى المراسي كروتشيفسو تسديدا للدين وهو في حالة جيدة ، وظل يعمل حتى وفاة صاحبه الاول .

اما في رواية المعلم جيزوالدو فان جيزوالدو نفسه هو الذي انتصر . لقد رأينا انه كان قد ولد في اسرة بائسة . واليك ما تقوله الرواية في حياته النضالية :

« كان في حركة دائبة : يعمل دائما ولا تستريح قدماه ابدا ، من هنا الى هناك ، في البرد والحر والمطر ، ورأسه مثقل بالافكار ، وقلبه متضخم بعدم الاستقرار ، وعظامه محطمة من التعب ، لا ينام أكثر من ساعتين اذا تيسر ذلك وكيفما تيسر : في قرنة اسطبل ، او خلف سياج ، في العراء او على الحجارة ، ياكل قطعة خبز أسود حيثما كان : على ظهر البغل ، او في ظل زيتونة ، او على طرف حفرة ، في الملايا اوفى دوامة من البرغش لم يعرف الاعياد ولا عطلة الاحد ولا عسرف قط كيف يضحك ضحكة مفتبطة ... ولا وجد لديه

وسأضفي الآن في استعراض هذه الفئات واحدة
واحدة :

1 - المفردات والجمل :

في روايتي فيرغا الكبيرين مفردات لا شك في
انها عربية الاصل لفظا ومعنى . ومنها الالفاظ
التالية : وهي كلها من رواية « ما لافوليا » ما عدا
الاخيرة منها فهي من « المعلم جيزوالدو » :

- | | |
|-----------------|--|
| 1) CATRAME | قطران |
| 2) CARRUBBO | خروب |
| 3) BABAU | بمبع |
| 4) SOMMACCHI | سماق |
| 5) ZAFFERANO | زعفران |
| 6) SATANASSO | شيطان |
| 7) SALAMALECCHI | سلامات ، او مجاملات
(من «السلام عليكم») |

والى جانب هذه المفردات استعمل فيرغا جملا
مركبة ليست ذات لفظ عربي او طبيعة عربية في
كتابتها ، الا أن لها مثيلات في التعبير العربي ،
مما يبدو معه الامر غريبا اذا لم تكن هذ التعابير
تحمل آثار الطابع العربي . واليك بعض هذه
العبارات ، مع ما يقابلها بالعربية ، واغلبها عامي ،
ولكنني مضطر الى تحويله الى تعبير فصيح ، مع
تقتي التامة من أن في البلدان العربية الاخرى ما
يقابله :

1 - يضع حجرا على الماضي
(جيزوالدو 238)

1) Mettere pietra sul passato

2 - من اخذ مالك خذ روحه
(جيزوالدو 321)

2) A chi ti vuol pigliar la roba levagli la vita

3 - يعيء هواء للصيف
(جيزوالدو 271)

3) Prendere il fresco per l'estate

4 - الفسيل القدر لا ينشر على السطوح
(جيزوالدو 275)

4) I panni sporchi si lavano in casa

5 - الامثال لم تكذب قط
(مالا فوليا 14)

5) Il motto degli antichi mai menti'

الانساني لا يجوز ، في اعتقادي ، أن نخضعها لفكرة
الاحتمية وتحكم الاقدار ، كما يشاء النقاد الايطاليون
أن يعتبروها في روايات فيرغا . انها بطولة ، وليست
خضوعا واستسلاما للاقدار .

ونجىء الآن الى النقطة الثانية في روايتي فيرغا
الكبيرين ، وهي (السمات والمثابه العربية) التي
جملناها عنوانا لهذه المحاضرة برمتها .

اننا هاهنا نصل الى نقطة فيها شيء من الحرج
ومن اثاره الفضول معا . وما اظن احدا قد اثارها من
قبل ، او اهتدى اليها .

في روايتي فيرغا الكبيرين وجدني ازاء بعض
العناصر التي يبدو انها متأثرة بالطابع العربي ،
مباشرة او غير مباشرة ، لان البيئات العربية
واللغة العربية ما يزال فيها الى اليوم ما يشبهها .

ومن المؤكد أن فيرغا لم يكن يعرف أن في
اعماله الادبية مثل هذه العناصر الاجنبية الواضحة .
ولعله لم يخطر بباله قط أن كاتباً عربياً سيجيء يوما
من بلد بعيد في الشرق ليكشف عن سمات عربية
في أدبه .

ولكن التأثير العربي في صقلية امر غير منكور،
على كل حال ، ولا هو بالشئ الذي يمكن كتمانها ،
فلقد حكم العرب الجزيرة قرنين من الزمن ، وكان
طبيعيا لذلك أن يتركوا آثارا ملموسة في أهلها ،
ولاسيما اذا عرفنا أن تأثيرهم الاجتماعي والثقافي قد
استمر اكثر من قرنين بعد خروجهم من الجزيرة .

لقد خطر لي في البداية أن أجعل عنوان هذه
المحاضرة ، وبشكل خاص هذا القسم منها : (اثر
العرب في ادب فيرغا) ، غير أن عدم يقيني التام
من هذا التأثير مباشرة جعلني اکتفي بعبارة (سمات
ومثابه عربية) ، وهي اقرب الى المنطق ، وربما
كانت اقرب الى الصحة . وسأحاول في ما يلي أن
ايبين المثابه اللغوية والروحية والواقعية بين البيئة
الفيروغوية والبيئات العربية .

ان السمات التي أعنيها يمكن تصنيفها في ثلاث
فئات :

1 - المفردات والجمل

2 - العادات والبيئات الشعبية

3 - الامثال والحكم

المصاب . وهم يحملون الارز ، والشاي ، والخراف ، والدجاج ، والطحين . والقهوة . وحتى الحطب لطهو الطعام والخبز وما الى ذلك من الحاجات البيتية . والقرويون يؤدون هذه المشاركة اللطيفة لمساعدة اسرة المبت وتغزيتها ، من جهة ، ثم لانه لا يجوز ان تتحمل اسرة الميت وحدها كل النفقات - وهي غير قليلة -

2 - (مالا فوليا - 80) فى ما يتعلق ببواعث الشؤم تقول الكنة سانتوتسا : « ان نقود العلم كروتشيفيسو تحمل معها الدواهي ! ففى هذه الثيلة ايضا سمعت الدجاجة السوداء تصيح » .

وعندنا ايضا اذا صاحت دجاجة مثل صياح الديك - وليس من الضروري ان تكون سوداء فقط - اعتبر ذلك نذير شؤم ، ولا بد عندئذ من ذبحها فدى عن البيت الذى تصيح فيه .

3 - (مالا فوليا - 93) - كان الحفيد نتوني يريد الاقتران ببربارة رغم ارادة جده وأمه ، وكان الجد يؤنبه قائلا : « هل ستتزوجها ؟ وأنا من اكون ؟ وأمك ، اليس لها عندك شأن ؟ حين اراد ابوك ان يتخذ له زوجة استشارني فى ذلك أولا » .

وفى رواية (المعلم جيزوالدو) كذلك حكاية مشابهة لهذه ، فى الصفحة 105 ، حين يسأل خادم الكنيسة السيدة بيانكا تراو اذا كانت ستتزوج السيد جيزوالدو ، فتجيبه بقولها : « اذا كان أخواي قد رفضا ذلك فأى رأي لى ؟ » ثم اضافت : « ان أخوئ هما صاحب الامر ... وهما وحدهما اللذان يقرران » .

وعندنا ، فى اكثر البلدان العربية ، ان لم يكن فيها جميعا - وعلى الاخص فى القرى والبيئات البدوية ، يتم الزواج بمثل هذه الطريقة : ليس عن رغبة أو حب متبادل ، بل باختيار الوالدين ، أو الاخ الأكبر الذى تقضى التقاليد بان يقوم مقام الوالد فى حالة وفاة الوالد .

4 - (مالا فوليا 111) - ونأتى الآن الى حادثة تبشر بقال حسن ، وذلك عندما « تتظاهر ابنة العم حنة بسقوط قارورة الخمر من يدها ، وفيها نحو ربعها من النبيذ ، فتأخذ عندئذ فى الهتاف : افرحوا ! افرحوا !.. ان اندلاق الخمر فال حسن ! »

عندنا يقال مثل هذا عن القهوة ، لا عن الخمر ، والاختلاف هنا بحكم البيئة والتقاليد فقط ، وذلك لان القهوة هي دليل الضيافة الحميمية الاعم استعمالا

6 - رآه بعينيه اللتين سيأكلهما الدود
(مالا فوليا 16)

6) Li avevi visti con quegli occhi che dovevano mangiarseli i vermi

7 - فلان مثل الحيط المنخفض
(مالا فوليا 73)

7) lo sono come il muro basso

8 - واقع بين المطرقة والسندان
(مالا فوليا 85)

8) Stava fra l'incudine e il martello

9 - لا يسمح بان تقف الذبابة على انفه
(مالا فوليا 97)

9) Non si lasciava posare le mosche al naso

10 - المصائب تعلم الحكمة
(مالا فوليا 119)

10) Il giudizio viene colle disgrazie

— * —

وهناك كثير من مثل هذه العبارات الإيطالية التى تقابل عبارات عربية مثلها وتطابقها كل المطابقة . وليس قصدي استعراضها جميعا بل تقديم بعض النماذج فحسب لكي انطلق بعد ذلك الى الفئة الثانية ، وهي :

2 - المشابهة فى العادات والبيئات الشعبية :

وهذه نقطة أخرى جديرة بالابرار والدرس ، وهي تتعلق بالعادات الشعبية التى رسمها فيرغا فى روايته . ومن السهل ان نجد ما يماثلها تماما فى الحياة الشعبية العربية . وأنا اكرر أنسى اورد ما اعرفه فى بلدي ، يقينا مني بأن فى البلدان العربية الاخرى ما يماثلها . وهاكم بعض تلك العادات :

1 - (مالا فوليا - ص 44) - يدور الحديث على موت الابن باستياناسو - وعند ذكر العادات الشعبية يعرفنا المؤلف كيف ان الاصدقاء يحملون الى بيت الفقيد هدايا من العجائن والبيض ، ومن خيرات الله .

ان مثل هذه العادة ما يزال متبعا الى اليوم فى القرى الاردنية ، مثلا - وليس من شك فى ان هناك مثله فى اقطار عربية أخرى - ففى القرى عندنا ليس الاصدقاء وحدهم هم الذين يحملون الى بيت الفقيد مختلف الهدايا ، بل تشترك القرية كلها فى ذلك كمعنى من معاني المؤاساة والمشاركة القلبية فى

والواقع ان فيرغا قد استطاع ان يعطينا كل ذلك ببراعة الفنان الاصيل .

وهنا ايضا نجد المجال واسعا للتبصر والملاحظة . ومن بين الامثال الصقلية التي اوردها فيرغا في روايته (اسرة مالا فوليا) اختار المجموعة التالية ، مع ما يقابلها من الامثال العربية العامية بشكل خاص ، (ولكنني مضطر الى ايراد هذه الامثال بغير اصلها العامي) :

- 1 - ما كان اوله شرطا فأخره سلامة -
1) Quel che e' di patto non inganna
- 2 - عمر الشقي طويل -
2) Uomo povero ha i giorni lunghi
- 3 - نم بخير يا جاري لكي أنام معك -
3) Augura bene al tuo vicino che qualcosa te ne viene
- 4 - بعيد عن العين بعيد عن الخاطر -
4) Lontano dagli occhi lontano dal cuore
- 5 - الصديق عند الضيق -
او :
- عند الشدائد يعرف الاخوان
5) Carcere, malattie e necessita', si conosce l'amista'
- 6 - كل واحد يهيل النار على قرصه -
6) Ognuno tira l'acqua al suo mulino
- 7 - البيت الذي ليس له كبير ليس له مشير -
7) Ascolta i vecchi e non ti sbagli
- 8 - الرجل يمسك من لسانه -
8) L'uomo per la parola e il bue per le corna
- 9 - الدم لا يصير سما -
او :
- الدم لا يصير ماء -
9) Il sangue non e' acqua
- 10 - من يلعب بالماء تبطل ثيابه -
10) Chi cade nell'acqua e' forza che si bagni
- 11 - الحب والبغض ليسا باليد -
11) Amare e disamare non sta a chi le vuol fare
- 12 - من كان لا خير فيه لقدومه لا خير فيه لجديده
12) Chi cambia la vecchia per la nuova peggio trova

لدى العرب ، وهي في ذلك كالخمر عند الايطاليين والفريسيين عامة .

5 - (جيزوالدو 273) غضب جيزوالدو غضبا شديدا حين بلغه ان ابنته ايزابيلا قد هربت من المدرسة الداخلية، واصابه ما يشبه الصدمة المفاجئة، فاضطروا الى استدعاء الحلاق ليسحب منه دما .

كملاج بدائي في بعض حالات المرض يلجأ الكثيرون في بعض البلاد العربية - ان لم يكن فسي جميعها - الى من يسحب منهم دما - وفي هذا نجد من يستخدم العلق لمص الدم - وهناك حلاقون - رايت بعضهم بنفسي في القدس قبل عدة اعوام - يعنون بتربية العلق في قوارير زجاجية كبيرة لهذا الغرض ، وهم يستخدمونه بالصاقه على ظهر المريض او عنقه لامتصاص شيء من دمه . وهناك من يستخدمون الشفرة او موسى الحلاقة ، يشطبون بهما ظهر المريض او اذنيه . كما ان العادة الاكثر شيوعا هي استعمال كاسات الدم لراحة المريض ، ولاسيما اذا كان يشكو من ضيق الصدر او النزلة الصدرية ، او ما الى ذلك .

من هذه النماذج نرى اننا ازاء عادات متشابهة كل التشابه في البيئة الصقلية الفيرغوية وفي البلدان العربية . ولا يبدو لي شيء من الغرابة في ان تكون هناك سمات عربية في هذه العادات الصقلية ما دامت هي نفسها شائعة في الاقطار العربية حتى اليوم .

— * —

3 - الامثال والحكم :

في الامثال والحكم نجد دائما خلاصة حميمة لتجارب الشعوب عبر الاجيال ، كما نجد الصورة الاصلية للعقلية والروح والاخلاق التي اكتسبها شعب ما نتيجة تجارب وصلات طويلة مع الشعوب الاخرى، سواء اكانت هذه الشعوب صديقة ام عدوة ، قريبة ام بعيدة .

وفي (اسرة مالا فوليا) بنوع خاص اهتم فيرغا كثيرا ، وعامدا ، بالامثال الصقلية ، وراح يرددها بكثرة في كل فصل من فصول الرواية بمقدرته الفنية الفائقة التي نعرفها . ومن المؤكد اننا نستطيع ان نستخلص منها صورة المجتمع بكثير من الدقة ، سواء من الوجهة الخلقية ام الاجتماعية .

من البيئات الشعبية الصقلية المناضلة لاجل العيش ،
والكافحة ببطولة جسارة في سبيل التغلب على حتمية
الاقدار القاسية .

وقبل ان اختم هذه الدراسة العاجلة اود ان
اذكر ما قاله لويجي كابوانا ، رفيق فيرغا ومواطنه
وزميل مدرسته الادبية ، في هذه الواقعية
الفيروغوية الصميعة ، وهو : « ان فيرغا حينما تخطر
على باله وضع فكرة قروية في صورة فنية ، لا
يقتصر على جمع بعض المعلومات ، بل ينقل صورة
أرضهم . ليس كافيا لديه ان يكون اولئك الاشخاص
ايطاليين - الفلاح ايطالي كلمة تجريدية - انه
يذهب ابعد من ذلك كثيرا : يريد ان يكونوا صقليين
.. يريدهم ان يكونوا من مقاطعة محددة ، بل من
مدينة محددة ، بل من قطعة صغيرة من الارض
بحجم الكف ... عند ذاك فقط يقف » .

ان هذا التحديد ينطبق كل الانطباق على روايتي
فيرغا اللتين استعرضناهما في هذه العجالة : فلقد
كان ادب فيرغا منتزعا من صميم الارض البائسة
التي رآى فيها المؤلف النور - وان لم يعش فيها
كثيرا ، بل قضى الشطر الاكبر والاھم من عمره
في الشمال ايطالي الذي ينعم بالثراء والرخاء
والحيوية العاملة في النهار والليل .

لقد كان فيرغا بحق ابن بيئته ، وكذلك كان
ادبه الخالد ، التابع من نفس تشعر ببؤس الآخرين ،
وينضالهم القاسي في سبيل العيش .

وطبيعي انه ، وهذا ادبه ، لا بد من ان يعكس
فيه الروح الصقلية العامة ، بكل ما فيها من رواسب
وتأثيرات انطبعت في حياته على مدى الاجيال .
ومن هذه التأثيرات ما لمسناه الآن من المشابهة
والسمات العربية في البيئات التي وصفها فيرغا في
روايته الكبيرين : (اسرة مالا فوليا) و (المعلم
السيد جيزوالدو) .

13 - من اكل على ضرره نفع نفسه -
13) Chi ha bocca mangia, e chi non mangia
muore

14 - شيء خير من لا شيء -
او بالعامية : (راحة الجوز ولا عذمه) -
14) Meglio poco che nulla

15 - كل طير يحن الى عشه -
15) Ad ogni uccello il suo nido e' bello

16 - القناعة غنى -
16) Piu' ricco e' in terra chi meno desidera

17 - من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم -
او : من يدخل بلد العور يقلع عينه -
17) Chi va con zoppi all' anno zoppica

18 - مال الحرام لا يدوم -
18) Roba rubata non dura

19 - ليس للجائع آذان -
وبالعامية : (الجوعان مالوش آذان)
19) Ventre affamato non ragiona

20 - الملدوغ يخاف من جرة الحبل -
20) Le cose lunghe diventano serpi

— * —

والآن بعد ان فرغت من استعراض هذه الامثلة
والنماذج العديدة ، والمشابه بين عادات وامثال
وتعابير متعددة من بيئة روايتي فيرغا الكبيرين
والبيئات العربية ، لست اريد ان اجيء بحكم نهائي
جازم في تأثير العرب في اعمال فيرغا الادبية ، بل
اترك هذا لكم انتم . اما انا فقد اقتصررت مهمتي على
ان القي ، بقدر الامكان ، نورا جديدا على بعض اعمال
فيرغا الادبية ، محاولا بذلك فتح طريق جديدة لمن
يشاء ان يتوسع في دراسة فيرغا وأدبه الجميل المنتزع